

## ميتافيزيقا الواقع عند إتيان جيلسون

### The metaphysics of reality according to Étienne Gilson

إعداد الباحث: محمد أمهور

باحث بسلك الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية

E-mail : [ama\\_med08@yahoo.fr](mailto:ama_med08@yahoo.fr)

#### ملخص البحث:

يعالج هذا المقال قضية فلسفية تتعلق بمجال الميتافيزيقا من زاوية نظر الفيلسوف الفرنسي المعاصر إتيان جيلسون، بحيث يدعو إلى إعادة التفكير في تاريخ الفلسفة وخاصة فلسفة العصر الوسيط من أجل فهم أهم التحولات التي عرفها الفكر الفلسفي عبر التاريخ.

نحاول في هذا المقال إبراز الفكر التاريخي الذي يدافع عنه جيلسون من خلال تتبع تطور مفهومين أساسيين في تاريخ الفلسفة وهما: الوجود والماهية. ومن خلال تتبع تناول هذه المفاهيم عند أهم الفلاسفة يتبين أن الإشكال المركزي الذي لم يتم تجاوزه منذ البدايات الأولى للميتافيزيقا، يتمثل في تلك العلاقة القائمة بين مفهومي الوجود والماهية ومدى أسبقية أحدهما على الآخر.

يدافع إتيان جيلسون عن تصور القديس توماس الأكويني الذي يتبنى أسبقية الوجود عن الماهية، وفي سبيل هذا التوجه ترتبط الفلسفة بالواقع فتصبح القضايا الوجودية وان كانت ذات طبيعة ماهوية، من صلب الواقع الوجودي للكائن الموجود واقعيًا، وبالتالي تصبح القضايا الميتافيزيقية قضايا تعالج الواقع الوجودي أو ما يسميه جيلسون الوجود الواقعي أي l'existence ومن ثم تتحقق الغاية من المقال وهي الانتقال من الوجود l'être إلى الوجود الواقعي l'existence.

يعمل إتيان جيلسون على مقارنة موضوع الوجود والماهية من خلال العودة التاريخية لقراءة تاريخ الفلسفة منذ أصولها الأولى التي تعود لليونان، ثم يربطها بالعصر الوسيط في شقيه الإسلامي والمسيحي ويركز خاصة على الإصلاح الذي قام به القديس طوماس الأكويني، ليقول بأن ما جاء به ديكرات في القرن 17م لم يكن فتحا ديكراتيا محضا ولم يكن عبقرية ديكراتية، وإنما هو عمل تاريخي ساهمت فيه عدة شخصيات فلسفية، بل وثقافات مختلفة، خاصة الإصلاح الفلسفي الذي توجّه القديس طوماس الأكويني في القرن الثالث عشر من خلال جعل الوجود يسبق الماهية أو بصيغة أخرى جعل الماهية تابعة للوجود.

**الكلمات المفتاحية:** الوجود، الماهية، الوجود الواقعي، ميتافيزيقا الواقع.

## The metaphysics of reality according to Étienne Gilson

### Abstract:

This research paper tackles a philosophical issue in the realm of metaphysics, still from the contemporary French philosopher Etienne Gilson's perspective as he calls for rethinking the history of philosophy, especially the philosophy of the Middle Ages, in order to understand the most important transformations that philosophical thought has known throughout history.

In this research, I try as a researcher to shed light on the historical thought in view of Gilson's ideas and understandings, and through tracing the development of the two basic concepts in the history of philosophy: being and essence. As we explore more these two concepts in the works of other major philosophers, there emerges the problematic of the (dialectic) relationship between 'being' and 'essence' in term of precedence, which has remained unsolved since the early beginnings of metaphysics.

In this context, Etienne Gilson argues for the conception of St. Thomas Aquinas adopting the primacy (precedence) of being (existence) over essence. This means philosophy relates to reality in the sense the existential issues, and regardless of their essential nature, are in the core of (existential) reality of all beings. Thus, all metaphysical issues deal with reality or what Gilson calls existence (being), to which this research refer or explore, so particularly with regard to the conceptual transition from 'l'etre' to 'l'existence'.

**Keywords:** Being, Essence, Realistic existence, the metaphysics of reality

## تقديم

يؤكد الفيلسوف إتيان جيلسون Etienne Gilson منذ بداية أطروحته الأساس المتضمنة في كتابه المركزي "الوجود والماهية"<sup>1</sup>، بأن الحاجة الفلسفية المعاصرة للبحث في ميتافيزيقا الوجود ما هي في الحقيقة إلا مقدمة لكل فينومينولوجيا<sup>2</sup>، حيث اعتبر أن ميتافيزيقا الوجود الحقيقية لم يسبق لها أبداً أن امتلكت الفينومينولوجيا بالشكل الذي يكون لها الحق فيها، فالفينومينولوجيا المعاصرة ليس لها ميتافيزيقا، والتي يمكنها وحدها أن تؤسسها<sup>3</sup>. لكن السعي نحو هذا المسعى يمكنه - حسب إ. جيلسون - أن يؤدي إلى خطأ جوهري يتمثل في محاولة جعل الفينومينولوجيا تؤسس في ذاتها ميتافيزيقا خاصة بها<sup>4</sup>. فكل المحاولات التي اعتبرت الفينومينولوجيا بمثابة بحث في أنطولوجيا الوجود، غالباً ما تتخذ في كونها فينومينولوجيا حول الوجود الفعلي<sup>5</sup> L'existence الذي تعمل على وصفه،

<sup>1</sup> مع نشر كتاب الوجود والماهية (1948)، اقتحم جيلسون حقاً الجدل الفلسفي المعاصر، مما دفع الكثيرين ممن لم يسمعوا أبداً عن الوجود إلا من خلال الوجود والعدم أو الفصل الأول من *Wissenschaft der Logik*، على الاعتراف بأن هذه كلمة "الوجود"، التي حاول التقليد المثالي دون جدوى حذفها من المفردات الفلسفية، محمية، إن لم يكن ربما "مصير الغرب"، على الأقل مكان أحد أقدم الخلافات وأكثرها ثباتاً. بعد ذلك، اقتنع الكثيرون، من خلال قراءة جيلسون، أن القديس توماس احتل في هذا النقاش مكاناً كان على الأقل أصلياً وهاماً، ولم يعد مسموحاً بتجاهله، حتى وقبل كل شيء إذا أراد المرء أن ينحاز إلى جانب في الجدل. ثم شنتها الوجودية ضد الماهوية المفترضة للتقليد بأكمله. « يرتبط النقاش الفلسفي الذي رسخه إ. جيلسون من خلال كتاب الوجود والماهية بضرورة إعادة قراءة تاريخ الفلسفة خاصة في شقها الوسطوي. يمكن العودة إلى كتاب *Pierre Aubenque, Etienne Gilson et nous*.

<sup>2</sup> الفينومينولوجيا هو تيار فلسفي من القرن العشرين أسسه إدموند هوسرل بهدف جعل الفلسفة تخصصاً علمياً. يأخذ اسمه من منهجه، وهو فهم الواقع كما يُعطى، من خلال الظواهر. إنها تجعل الفلسفة الدراسة والتحليل المنهجين لتجربة العيش، ومحتويات الوعي وتركيبات حقائق الوعي باعتبارها نفسها ظاهرة فكرية تفكر في نفسها وتفكر في العالم. في أول عمل رئيسي له، التحقيقات المنطقية (1900-1901)، أسس هوسرل، خلافاً للنزعة السيكلوجية في العلم ومعارضة للميتافيزيقا، علم الظواهر كعلم يهدف إلى إعطاء أساس للعلوم الطبيعية، والتي يعتبرها غير قادرة على " توضيح علاقة الإنسان بالعالم. يمكن العودة كذلك لكتاب أزمة العلوم الاوربية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية، إدموند هوسرل، ترجمة إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2008.

<sup>3</sup> (Gilson, L'être et L'essence, p.22)

<sup>4</sup> Ibid. p. 332

<sup>5</sup> مصطلح الوجود في حد ذاته غامض، فهو يغطي معاني متعددة. في اللغة الشائعة يشير إلى حقيقة الوجود، والوجود بطريقة حقيقية، وبالتالي يتم استخدامه في استخدام غير محدد بنفس القدر من قبل العديد من الفلاسفة كمكافئ لمصطلح "الوجود". بالإضافة إلى حقيقة الوجود، فإنه يتدخل، كما يقول Petit Larousse، في العديد من التعبيرات الشائعة للإشارة إلى مدة (وجود طويل)، بمعنى الحياة (سئم المرء من وجوده)، أسلوب حياة (ل تغيير وجود المرء)، وما إلى ذلك في الميتافيزيقيا، ولا سيما في توماس الأكويني، يتشكل مع مصطلح "الجوهر" زوجان مكملان، والجوهر سيكون أفكار الأشياء، وما هي "في ذاتها" والوجود حقيقة أن تكون في الواقع، على أن تكون قد خلقت للمؤمنين. ومع ذلك، بالمعنى الاشتقائي، فإن "الوجود" له معنى أكثر دقة. الوجود (باللاتينية القديمة *exsistere*، أو *exsistere* السابقة)، "أن تخرج من"، "أن تظهر، لتظهر نفسها" 1، يفسرها بعض الفلاسفة على أنها "أن تكون خارج الذات"، وبالتالي تكون قريبة من الأشياء. نقرأ في قاموس Gaffiot أن الفعل *exsisto* (موجود) في اللاتينية له معنيان رئيسيان. المعنى 1: أن تخرج من، وأن تنهض من، وبالاشتقاق، وتولد منها. المعنى 2: أن تقوم، لتظهر، لتظهر نفسك. 3 من الواضح أن هايدجر سيستغل هذا المعنى الثاني. بمعنى "الوجود خارج الذات"، لا يمكن تطبيق

بينما الانطولوجيا التي تعتبر نفسها فينومينولوجيا تسيء فهم الطبيعة الحقيقية للوجود باعتباره موجودا الذي تدعي بالأحرى بأنه موضوعها الخاص، لكن، ورغم ذلك فمن المهم بالنسبة لميتافيزيقا الوجود أن تركز على فينومينولوجيا تتجاوزها دون أية إمكانية لكي تتفصل عنها<sup>6</sup>.

عن القصد من وراء هذا النقد، هو تموقع ميتافيزيقا الوجود حسب إتيان جلسون، من أجل إعادة تأسيس العلاقة بين الميتافيزيقا وكل التيارات الفينومينولوجيا المعاصرة، على أساس إعادة طرح سؤال الوجود والكائن والماهية، وذلك بالعودة لصفحات التاريخ الفلسفي ومساءلة مختلف المحطات والانتقالات، وحتى الانزلاقات التي ساهمت في تحوير وتغيير مفهوم الوجود، الذي يعتبر منبع كل التأملات الفلسفية، وفي الوقت نفسه، المصب الذي يجعل من الوجود ومن وجود الموجود حجرة الزاوية في كل بناء فلسفي للميتافيزيقا.

### أهمية البحث:

يهدف هذا البحث إلى التعريف أولا بفيلسوف فرنسي معاصر 1978/1884 نشأ في بيئة فكرية مسيحية الديانة لكنها علمانية التوجه، وتؤمن بالفكر الوضعي خاصة مع هيمنة هذا النمط من التفكير في الجامعة الفرنسية من أمثال اميل دوركهايم واميل بريي... والذين يعتقدون بأن المرحلة الوسطوية أو العصر الوسيط هو عصر الظلمات لم يعرف أي ابداع فلسفي، بل هو مجرد اجترار وهرطقة على هامش الفلسفة اليونانية. ولذلك قام اتيان جلسون بمعينة فلاسفة آخرين أمثال جان ماريتان وبرغسون على العودة للتاريخ الفلسفي وخاصة الفترة الوسطوية والعمل على نبش مضامينها من أجل التحقق من مدى صدق الدعوى الوضعية التي تبخس العصر الوسيط فكريا وفلسفيا.

هدفنا في هذا البحث مزدوج الرؤية: فمن جهة نريد أن نسلط الضوء على فكر اتيان جلسون فيما يتعلق بفلسفته المستندة على التاريخ والتحليل الفلسفيين، ومن جهة أخرى نسعى إلى تعميق النقاش حول قضية لا تزال لها راهنتها في العالم العربي، وهي مدى مساهمة الفلسفة الوسطوية وخاصة الإسلامية منها في ركب الحضارة الانسانية وذلك ما يحاول أن يبرز اتيان جلسون ولو بطريقة محتشمة وعبر وساطة القديس طوماس الأكويني.

**أهداف البحث:** تهدف هذه الدراسة إلى معالجة قضية فلسفية ترتبط بعمق الوجود الإنساني من خلال التفكير في دلالة الوجود باعتبار الانسان كائن ميتافيزيقي، يفكر في وجوده الذاتي ووجوده الجماعي، من أجل تمثل أرقى للعالم الذي يجد نفسه فيه. ولذلك نهدف من هذا النقاش الفلسفي بلوغ الأهداف التالية:

"الوجود" إلا على الإنسان الذي يتحدث بشكل صحيح، وليس على الأشياء البسيطة: فقط الإنسان موجود. بهذا المعنى، تستخدم الوجودية وجان بول سارتر هذا المصطلح. نفس الشيء مع مارتن هايدجر في كتابه "الوجود والزمن" ومع إيمانويل ليفيناس. الوجود عند هايدجر يخص الإنسان فقط. الأشياء والحيوانات ببساطة هناك. في الوجود، نجد فكرة الحياة، مع هشاشتها وعدم اليقين فيها، ولكن أيضًا فكرة الحركة، عن "ضرورة الوجود" أو "توفير مساحة للوجود". (يفهم على أنها التعرض للوجود) الذي يتعلق فقط بالدايين.

<sup>6</sup> Ibid. p. 332

- التأمل في قضايا ميثافيزيقا الواقع عند اتيان جلسون كطريق ممكن لفهم الواقع الإنساني المعقد، من أجل فهم التداخل الحاصل بين الميثافيزيقا والواقع.
- تعميق النقاش في القضايا الميثافيزيقية ليس باعتبارها ترفا فكريا، بل بالعكس، من خلال اعتبارها مسؤولة واقعية تخاطب عمق الوجود لكل انسان.
- فتح مجال النقاش بين الباحثين المتخصصين في مجال الفلسفة والعلوم الانسانية على العلاقة القائمة بين القضايا الميثافيزيقية المنسية وواقع الحياة الانسانية في الواقع المعيش من خلال أطروحة اتيان جلسون التي تبدو غائبة بين جمهور الباحثين في العالم العربي.
- إعادة النظر في التاريخ الوسيط الخاص بتطور الأفكار والتحقق من مساهماته الكبيرة في الانتقال نحو الحدائة الفكرية، خاصة بالنسبة لنا نحن أحفاد ابن سينا وابن رشد، لأن ذلك من شأنه أن يجعل نظرتنا للحضارة الإنسانية ذو طبيعة كونية واسعة تتجاوز الخصوصية الضيقة.
- الاهتمام بإعادة قراءة التاريخ الفكري وتاريخ الأفكار، من أجل المساهمة في تقديم بدائل لتأويل الواقع والتنظير للمستقبل.

### منهج البحث:

إن المعالجة الفلسفية لأشكال متعدد ينتقل مما هو ثيولوجي لينفتح على البعد الأنطولوجي بما له من امتدادات فلسفية حتى العصر الحديث، هذا الأمر يجعلنا أمام منهج يعتمد آلية التحليل التاريخي أي تتبع النصوص في تدرجها التاريخي دون الانغماس في البعد التاريخي، ذلك أن العودة إلى التاريخ من أجل رصد التراكم وملاحظة التحولات والانتقالات، وقد ساعدنا على ذلك جلسون نفسه، بحيث أن قبعة المؤرخ لتاريخ الأفكار هي من أهم النعوت التي التصقت بالفيلسوف. وبذلك سيكون تناولنا للموضوع فيه حضور للتسلسل التاريخي، خاصة عندما نتحدث عن مفهومي الوجود والماهية وتتبع تحولاتها التاريخية منذ اليونان إلى العصر الوسيط.

وبنفس الأمر يكون المنهج التاريخي التحليلي حاضرا في تتبع تطور مفهوم الانطولوجيا ضمن تصور ميثافيزيقي يعود لأرسطو ويعرف تدرجا تاريخيا تبعا لمحطات أساسية تتناول تحولات مفهومي الوجود والماهية. لكن سيادة المنهج التاريخي لا يعني أن هناك رؤية نقدية لكل الأفكار التي يمكن أن توطر هذا العمل الخاص بالعلاقة بين الثيولوجيا والانطولوجيا، فلا يسلم هذا التصور من تصورات وأفكار انتقدت الطرح الجلسوني فكان لا بد من الإشارة إليها، حتى تتوضح الصورة ولكيلا يتحول الموضوع إلى سرد تاريخي خطي لوجهة نظر واحدة لتاريخ تطور الفكر الفلسفي في العصر الوسيط.

## 1- نحو قراءة جديدة لتاريخ الميتافيزيقا.

من المعلوم أن صفة المؤرخ لتاريخ الفلسفة<sup>7</sup>، طغت على طبيعة الأبحاث التي قام بها إتيان جلسون لمعالجة القضايا الميتافيزيقية، لكن هذا الأمر لا يعدو ان يكون مدخلا لإعادة قراءة تاريخ الفلسفة، الذي يعتبره إتيان جلسون مفتاحا لتعدد القراءات، خاصة في الفترة المعاصرة. حيث هيمنت النزعة الوضعية<sup>8</sup> في ربط الفلسفة بتاريخ تطور العلوم الطبيعية منذ أن سيطر التصور الديكارتي الحديث على مسار تطور الفكر الفلسفي، وفق قراءة أحادية تنتقل من اليونان إلى العصر الحديث بشكل تجزيئي واختزالي. كما انه ينتقد التوجهات المعاكسة المنبثقة عن الكانطية الجديدة التي تسعى نحو استكمال المشروع الكانطي<sup>9</sup>، والمتمثل في توسيع القراءة العلمية للطبيعة نحو مجال علوم الروح Science de l'esprit، بشكل يضمن ولوج عالم ما بعد الطبيعة او الميتافيزيقا بما يضمن معالجة قضايا علم الوجود Science de l'être كقضايا معرفية يتم دراستها من طرف مختلف علوم الطبيعة<sup>10</sup>. فهو يرفض من جهة، الارتقاء في أحضان النزعة العلمية الوضعية positivisme، ومن جهة أخرى ينتقد تحويل قضايا ميتافيزيقا الوجود نحو قضايا وجودية وفق المنهج الفينومينولوجي،

<sup>7</sup> يعرف إتيان جلسون (1884-1978) في الأوساط العلمية والفلسفية الفرنسية بكونه مؤرخ للفلسفة ومدرس لتاريخ الفلسفة خاصة المرحلة الوسطية منها بكونه يوليغ دوفرانس منذ 1921 إلى 1951 ولم تمنعه هذه الصفة من دخول غمار النقاش الفلسفي حول مدى أصالة الفكر الوسطي المسيحي خاصة في تحليله لفكر القديس توماس الأكويني ومن خلاله إعادة فتح النقاش حول التحقيب الفلسفي السائد في الأوساط الفلسفية الغربية ويدخل في نقاش مع ألمع مؤرخي الفلسفة أمثال بدأ في دراسة الفلسفة وتابع دروس فيكتور دلبوس ودوركايم وليفي برول في جامعة السوربون، مما جعله يقرأ القديس توما الأكويني. في الثلاثينيات من القرن الماضي، واجه نقاش معارضين (في فرنسا، برونشفيك Brunschvicg وبريهير Bréhier وأنصار (ماريتين Maritain وجلسون Gilson) للفلسفة المسيحية. في إطار هذا النقاش، يتساءل جلسون عما إذا كانت عبارة الفلسفة المسيحية ليست متناقضة في حد ذاتها، وما إذا كان الدين والفلسفة لا يتعارضان بشكل غير قابل للاختزال. مشيرًا إلى أنه "إذا لم يكن هناك سبب مسيحي، فيمكن أن يكون هناك ممارسة مسيحية للعقل"، يوضح أن مشاكل وجود الله، وخلق العالم من العدم، وخلق الروح أو الحرية. سوف يدخل الفلسفة بفضل المسيحية.

<sup>8</sup> الوضعية هي تيار فلسفي تأسس في القرن التاسع عشر من قبل أوغست كونت، وريث وناقد عصر التنوير في القرن الثامن عشر والذي يقدم بصرامة المعرفة المكتسبة لاختبار الحقائق. لذلك فإن الوضعية العلمية لأوغست كونت تتمسك بالعلاقات بين الظواهر ولا تسعى إلى معرفة طبيعتها الجوهرية: فهو يؤكد على القوانين العلمية ويرفض البحث عن الأسباب الأولية. يبني أوغست كونت فلسفة العلم التي تبدأ من الرياضيات لتصل إلى علم الاجتماع والعلوم السياسية، بالإضافة إلى فلسفة التاريخ التي تتصور العملية التاريخية كخطوة نحو عقلانية علمية أكبر ("إيجابية"). وأقل من اللاهوت والتكهنات الميتافيزيقية حول الحقائق المتعالية "قانون الحالات الثلاث". بعد وفاة كونت عام 1857، سرعان ما ابتلي التيار بالعديد من التوترات الداخلية. ومع ذلك، تركت الوضعية بصماتها على العديد من مجالات الفكر في القرن التاسع عشر، حيث مارست تأثيرًا، من بين أمور أخرى، على الطب 1، والتجريبية المنطقية، وعلى التيارات المختلفة التي ليست كلها مترابطة (مثل الوضعية القانونية، وبعض التيارات الإنجليزية المشتقة من Comtian الإيثار، أو حتى الوضعية الجديدة المعاصرة

<sup>9</sup> من سنوات 1796 إلى 1797، عمل كانط على عمل نهائي - لم يكتمل خلال حياته - Opus postumum، والذي يتعلق بـ "كل الفلسفة". إنها مسألة استكمال "الانتقال من المبادئ الميتافيزيقية الأولى لعلم الطبيعة إلى الفيزياء. يجب إنجاز هذه المهمة، وإلا فإن نظام الفلسفة النقدية سيكون له فجوة لم يتم استكمالها.

<sup>10</sup> - ( Gilson, The unity of philosophical experience. Scribner's sons . P.136)

بحيث تصبح قضية فينومينولوجية محضة<sup>11</sup>. ويدعو في المقابل إلى إعادة طرح سؤال الوجود وفق تطور تاريخي للميتافيزيقا، يدمج مختلف المراحل الأساسية بما فيها المرحلة المنسية من تاريخها، وهي المرحلة الوسطوية السكولائية<sup>12</sup>، التي يعتبرها مرحلة أساسية ساهمت في استيعاب الموروث الفلسفي اليوناني، وربطه بتحولاته المهمة خلال المرحلة الوسطوية بشقيها الإسلامي- اليهودي والمسيحي الكنسي<sup>13</sup>. الشيء الذي سمح بانبثاق العصر الحديث كثمرة لكل المجهودات الفكرية الإنسانية التي مرت في تاريخ الفلسفة من أجل فك لغز الوجود<sup>14</sup>.

إن المشروع الفلسفي الذي افتتحه إتيان جلسون منذ بداية سنوات العشرين من القرن الماضي (1913)، بدراسة حول مفهوم الحرية عند ديكارت<sup>15</sup> ووصولاً إلى مرحلة النضج والاكتمال مع دراسة " الوجود والماهية" (1948). هذا المشروع منذ البداية يفصح عن تصوره المعاكس تماماً للاختزال العلمي الوضعي، أو ما يعرف بتجاوز القضايا الميتافيزيقية العقيمة أو العديمة الجدوى، لكن في المقابل يسعى نحو ترسيخ حوار فلسفي أصيل مع التيارات الوجودية منذ كيرك جارد Kierkegaard وفينومينولوجيا هوسرل وهايدغر،

11 يعتبر إتيان جلسون على خلاف فلاسفة الفينومينولوجيا بأن الفلسفة ليس من أولوياتها أن تتحول إلى قضايا حدسية تفكر في ذاتها من خلال القضايا الفينومينولوجيا المحضة، بل العكس من ذلك فهي مدعوة لإعادة التفكير في قضايا الانسان والعالم من زاوية الميتافيزيقا التي بإمكانها أن تتضمن الفينومينولوجيا وليس أن تخضع الميتافيزيقا للمنهج الفينومينولوجي. لمزيد من التوضيح يمكن العودة لخاتمة الكتاب الأساس الماهية والوجود (1948) ص 324 وما بعدها.

12 مصطلح "مدرسي"، المشتق من المصطلح schola، مشتق من الكلمة اليونانية scholê بمعنى الكسل، ووقت الفراغ، والخمول، والتي - فيما بعد - تعني: "الاتحاق بالمدرسة، أخذ الدورات". في الواقع، في العصور الوسطى، كان رجال الدين العاديين فقط هم من امتلك "scholê"، أي وقت الفراغ للدراسة، وترك للأخرين (رجال الدين العلمانيون، الإخوة العلمانيون، العلمانيون، إلخ) الرعاية - التي تعتبر تابعة - للشؤون المادية. إن دراسة الكتاب المقدس من أسس المدرسة. أن الترجمة السبعينية تُرجمت من العبرية إلى اليونانية في الإسكندرية. تمت ترجمة العهد القديم بعد ذلك من العبرية إلى اللاتينية بواسطة القديس جيروم، الذي قام أيضاً بمراجعة النسخة اللاتينية القديمة للعهد الجديد، مما أدى إلى ظهور Vulgate<sup>1</sup>. أصبح الفولجيت النص المرجعي للمفكرين اللاتينيين في العصور الوسطى. لا يمكن الوصول إليه إلا للباحثين، فهو أساس الدراسات بلا منازع. تخضع أيضاً للدراسة المدرسية التعاليم الرسمية للكنيسة، ولا سيما قرارات المجالس؛ كتابات القديسين أمثال القديس أوغسطينوس والقديس هيلير وغريغوريوس الكبير؛ الأطروحات المنسوبة إلى ديونيسيوس الأريوباجي، وقبل كل شيء الكتب الأربعة من الجمل، حيث رتب بيتر لومبارد، حوالي عام 1150، جميع البيانات والمشاكل المتعلقة بالإيمان المسيحي كما تم تحديدها ومناقشتها وفهمها من قبل المفكرين الرئيسيين الكنيسة. تمر المصالحة بين أرسطو "الطبيب الإلهي" والإيمان المسيحي بشكل خاص من خلال محاولة حل التوترات بين الفلسفة الأولى (وفقاً لأرسطو) واللاهوت، بعبارة أخرى بين ميتافيزيقيا عامة (سميت الفلسفة الأولى لاحقاً) علم الوجود، أو الفلسفة) وعلم أن تكون بامتياز (لاحقاً، تخصص الميتافيزيقيا، علم اللاهوت.

13 يدعو إتيان جلسون في العديد من مؤلفاته بضرورة إعادة قراءة تاريخ الفكر الفلسفي من خلال قراءة جديدة تنفتح على فهم التلاحق الذي حدث في الفترة الوسطوية بين الفلاسفة المسلمون (ابن سينا وابن رشد) مع الفلاسفة اليهود أمثال موسى بن ميمون والفلاسفة المسيحيون أمثال القديس توماس الأكويني. يمكن العودة لكتاب le thomisme في الفصل الثالث المعنون بـ "الإصلاح الطوماوي".

14 - ( l' être et l' essence ; op. cité, p. 232)

15 في عام 1913، دافع عن أطروحة الدكتوراه الخاصة به في La Liberté chez Descartes واللاهوت في جامعة السوربون وعُين محاضراً في الفلسفة في كلية الآداب في ليل.

على أنه يعتبر أن الحوار مع هؤلاء هو من أجل بلوغ التقاء الاتجاهين حول قضايا ميتافيزيقا الوجود، على اعتبار أن تأصيل البحوث حول مفهوم الوجود L'être والكائن L'étant يمكنها أن تؤدي نحو انطولوجيا الكائن ضمن حضان ميتافيزيقا أصيلة تطرح بعمق سؤال الوجود<sup>16</sup>.

إن الثابت في المشروع الفلسفي لإتيان جلسون هو اعتباره أن تاريخ الفلسفة ليس تاريخاً مغلقاً،<sup>17</sup> بل إنه تاريخ مفتوح على تعدد القراءات، لا يمكن اختزاله في مؤلف واحد أو فيلسوف واحد، وكل الطرق والتفكير الفلسفتين هي ممكنة، شريطة ألا تكون تلك الطرق عقيمة. فتفكير الفيلسوف حول معطيات التاريخ ليست هي الطريق السليم ولا الأحسن، لكن طريق البحث عن الحقيقة يجعلنا نخرط في الطريق الذي وجدنا أنفسنا منخرطين فيه. إنه طريق الكائن L'étant وطريق الماهية L'essence، ذلك الطريق الذي يجعل من الوجود l'être الذي نرغب في وصوله ليس أقل من الكائن الميتافيزيقي اللاتيني الكلاسيكي، مع ما يمكن أن يلازماً من مكابدة ومعاناة الكثير من الهموم الميتافيزيقية التي وحدها حسب إتيان جلسون يمكنها أن تحررنا<sup>19</sup>.

## 2- أولوية البحث الميتافيزيقي.

لكن ما السبيل إلى معالجة قضايا ميتافيزيقا الوجود، في ظل إخفاقات الميتافيزيقا نفسها، تلك الإخفاقات -حسب إتيان جلسون- آتية من استعمالات الميتافيزيقيين أنفسهم لمفهوم الوجود L'être باعتباره المبدأ الأول لعلمهم. لكن قبول هذا الافتراض، أي أن الوجود هو المبدأ الأول للمعرفة، فكيف لا يكون متضمناً في كل تمثالتنا<sup>20</sup>؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يتم التمسك بدلالته المغلقة في كل أشكال النظر Spéculation الميتافيزيقية، بينما نجد العديد من الميتافيزيقيين، وبعد عدة محاولات بائسة ينتهون في نهاية المطاف إلى رفض سلطة التعريف المرتبطة بموضوع الميتافيزيقا.

يعتبر إتيان جلسون أن هناك شيء ما غريب في مثل هذه الواقعة، يجعل أن هناك شيئاً ما ليس له ثبات أو صمود للبقاء كما هو،

<sup>16</sup> - (Gilson, l'être et l'essence ; op. cité, p. 22 )

<sup>17</sup> - ibid. p. 328

<sup>18</sup> يعتبر جلسون في تعليقاته الواردة في **APPENDICE2** من كتاب الوجود والماهية في طبعته الثالثة، أنه لو أتاحت له الفرصة لكتابة كتابه **الوجود والماهية** مرة أخرى، فإنه سيعمل على تغيير بعض الاستعمالات المفهومية والاصطلاحية خاصة بالنسبة لنقطة جوهرية تتعلق بالكائن أو الحديث عن الموجود، لأنه عبر في غير ما مرة عن انزعاجه من عدم وجود كلمة فرنسية للتمييز تستعمل بشكل دائم وتعمل على ترجمة esse وتميزه عن ens، فليس لدينا دائماً حسب جلسون في الفرنسية إلا كلمة واحدة للتعبير عنهما معا وهي: être والتي تدل بشكل غير منفصل عن فعل الوجود l'acte d'être(esse) وفي نفس الوقت تعبر عن ما هو موجود ens. لقد استعمل جلسون في كثير من الأحيان جملاً لتمييز الدلالة المقصودة بين existence et acte d'être ولو أتاحت له الفرصة دائماً سيستعمل بدون تردد الكائن l'étant مأخوذاً بشكل جوهرى لتعيين ens أو من يملك الوجود وسيجعل من كلمة وجود être مأخوذة هي الأخرى بشكل جوهرى للدلالة على ما كان يسميه القديس طوماس الأكويني esse أو actus essendi، الذي هو الفعل الذي من خلاله يكون الكائن هو الموجود الحالي أو الفعلي un être actuel.

<sup>19</sup> - ibid. p. 23

<sup>20</sup> - ibid. p. 09

هذا هو التناقض الذي يجعل التفكير النقدي حول العديد من القضايا ومعطيات التاريخ لا تسمح في بعض الأحيان بتوضيح طبيعته. إن طرح هذا المشكل لن يكون بالأحرى إلا بالعودة لما اعتبره أرسطو سابقا بأنه الهاجس الثابت للفلاسفة: ما هو الوجود؟<sup>21</sup> qu' est-ce que l'être.

يجيب أرسطو بأن الوجود هو ما هو موجود<sup>22</sup>، ولا شيء أكثر صحة أو دقة، لكن الصعوبات تبدأ بمجرد ما نبحت عن تحديد معنى كلمة "موجود" "est". ومن ثمة ينبغي توضيح طبيعة هذا التناقض، انطلاقا من تحديد معنى ما هو موجود وعلاقته بالموجود الواقعي، فالبحث في دلالة الوجود، يعني بالضرورة تعميق البحث في دلالة كلمة وجود être والتساؤل حول معنى تلك الكلمة، فماذا يعني الميتافيزيقي عندما يطرح مسألة " الوجود" للتأمل الفلسفي؟

يذكرنا إيتيان جليسون في بداية معالجته للغة المستعملة من طرف الميتافيزيقي، بأن الكثير من المعانيين والرافضين لما نسميه لغة ميتافيزيقية، يعتبرون أن هؤلاء يقبضون أجورا عن مجرد كلمات، وإذا كان ذلك الأمر حقيقية لا ترقى إلى الشك، بمعنى أن العديد من الكلمات هي مادة تتم حولها تأملات الميتافيزيقي، لكن ذلك ليس بالضرورة يمكن استعماله لضرب عمل الميتافيزيقي أو من أجل إقصاء الميتافيزيقا من البحث حول لغتهم. وبالتالي فلا يمكن معاتبة الذين يعبرون عن رغبتهم في فهم الكلمات التي يستعملونها. ذلك أن إيتيان جليسون يعتبر أن هذا العتاب الظاهري لا ينبغي أن يخفي مواقف مسبقة تعتبر أن العمل الذي يقوم به هؤلاء الميتافيزيقيون، هو عمل فاقد للمعنى وان الكلمات التي يبحثون في دلالتها هي كلمات فاقدة للمعنى، لأن موضوع اشتغالهم هو موضوع من اختصاص العلم وله دلالة علمية وعملية في الواقع، بحيث أنه لا مكان للميتافيزيقا في هذا المجال العلمي الخاص<sup>23</sup>.

هكذا نفهم مع إيتيان جليسون بأن الاعتراض على عمل الميتافيزيقي، لكي يصبح دقيقا فعليه أن ينطلق من المشتغلين بمجال الميتافيزيقا، حيث نجد ميتافيزيقي وهو يمارس تأملاته يمكن أن يطرح سؤالا عن جدوى أبحاثه، أو أن يتساءل ألا يضيع وقته في كلمات فارغة من المعنى. في حين أن الكلمات التي يمارس عليها التأمل لم يتم اختيارها بالصدفة، إنها بالتأكيد تشكل خصوصية العمل الميتافيزيقي في جوهره. صحيح أن هذه الكلمات تبدو فضفاضة، وتحتمل أكثر من معنى، ولكنها أيضا بمثابة كلمات مفاتيح، لن تجد من المختصين في هذا المجال من يعتبر إمكانية القيام بتلك الأبحاث في غيابها، وبدونها تصبح اللغة الميتافيزيقية مستحيلة، على اعتبار أن استعمالها ينتمي إلى عمق الوجود اليومي الانساني<sup>24</sup>. ويتساءل جليسون كم من جملة نستعملها في حياتنا اليومية تخلو من النطق بكلمات مثل "وجود" و"علة الشيء" أو "غايته"؟ ويجيبنا بأنه باستعمال هذه الكلمات تنبثق المشكلات الفلسفية والميتافيزيقية الثلاث التي يتم الشك فيها باستمرار، والمتعلقة بالوجود de l'être، والسببية la causalité والغائية<sup>25</sup> la finalité.

<sup>21</sup> - ibid. p. 09

<sup>22</sup> - ibid. p. 83

<sup>23</sup> - (Gilson, l'être et l'essence ; op. cité, p. 13)

<sup>24</sup> - ibid. p. 13

<sup>25</sup> - ibid. p. 13

إن كل كلمة من الكلمات السالفة الذكر تعبر عن عمق عمل الميتافيزيقي، وكل منها يتضمن دلالة تحتاج للبحث والتمحيص قصد تفكيك معطياتها ومختلف تداولاتها، لكن شساعة الموضوع وتشعب تفاصيله من جهة، واعتبارا لدواعي منهجية صرفه، نقتصر في هذه اللحظة على تتبع كلمة " وجود" être ، انسجاما مع موضوعها والمتعلق بميتافيزيكا الوجود، على اعتبار أن الحسم في دلالة كلمة وجود يمكنه أن يوضح الكثير من المشكلات الميتافيزيقية المستعصية.

### 3- مشروعية اللغة الميتافيزيقية.

من البديهي، القول بأن فعل "وجد" être والاسم موجود l'être ليسوا كلمات عالمة ولدها الفلاسفة للتعبير عن مفاهيم تقنية مخصوصة، إنها بالأحرى كلمات موجودة ضمن اللغة الطبيعية المشتركة. ليست خاصة باستعمال الميتافيزيقيين وحدهم، بل هي كلمات متاحة لعموم الناس. فنحن نعرف عن أي شيء نتحدث عندما نقول "إنسان" أو " فرس"، لكن عن أي شيء نتحدث عندما نقول وجود «esse» être أو عندما نقول كائن (ENS ; un être) étant أو "ماهية" بمعنى أننا نتحدث عن أشياء نسعى من خلالها إلى البحث عن الشرط الأساس الذي يجعل من الشيء الموجود هو موجود؟

بالتأكيد عن كلمة ماهية essence هي كلمة تنتمي للغة خاصة عالمة savante، يعني أن ترتبط بالمتخصص الدارس لمجال بعينه وهو الميتافيزيقي، لكن ما يقصد به أو ما يعنيه هو بكل بساطة إذا أردنا القول هو الكائن الموجود "l'étance"<sup>26</sup>، وبالتالي فلا وجود لسر خاص أو كلمات تقنية عندما نقول بأن الكائن l'étant هو موجود.

الميتافيزيقي إذن، وإن كانت تشتغل على كلمات تنتمي للغة المشتركة، فإنها مشكلات لا توجد لدى أي تخصص آخر، إنه علم متميز عن باقي العلوم لأن موضوعه الوجود بما هو موجود. هو متميز عن موضوعات باقي العلوم<sup>27</sup>. فالميتافيزيقي وحدها من يمكن أن تؤكد اللغة الطبيعية المشتركة مأخوذة في عفويتها وتلقائيتها، والقادرة على معرفة الواقع Le réel .

يؤكد جلسون بأنه من حق الميتافيزيقي القول بأن أبحاثه تهتم بالكلمات، لكن لهذه الاعتبارات نفسها ينبغي التساؤل عن دلالاتها، وهل لها معنى أم لا؟ وإذا كانت قد وجدت بالتأكيد معنى لكلماته، فينبغي تأكيد مضمونها الواقعي leur contenu réel<sup>28</sup>.

يتابع إتيان جلسون تأصيله للأسس المشروعة التي تجعل عمل الميتافيزيقي يرتبط ضرورة بمضمون اللغة الوجودية عن طريق مواجهة، وإيجاد كافة العوائق الآتية تحديدا من مجال العلوم التي تنفي عن البحث الميتافيزيقي كل معنى.

وفي هذا الإطار يتساءل إذا ما كان فعلا البحث حول معرفة كلمة وجود être لا يتضمن إلا قيمة رياضية في الحساب المنطقي فقط، أم أنها تعبر عن بعض الخصائص الأساسية الواقعية المرتبطة بذلك الذي " يمكن نعتة بكونه موجودا"<sup>29</sup>.

<sup>26</sup>- تستعمل كلمة étance في اللغة الفرنسية للدلالة على الكائن l'étant الذي يملك الوجود، أو ما يشكل كينونة الكائن فالذي يجعل كائن ما كائنا هو كينونته أي l'étance يمكن العودة لكتاب Maurice Corvez, L'Être et l'étant dans la philosophie de Martin (Heidegger).

<sup>27</sup>-(Gilson, l'être et l'essence ; op. cité, p. 83)

<sup>28</sup>- ibid ; p.13

إن الذين يعاتبون الميتافيزيقا عن انشغالها بالكلمات، فهم يغفلون فكرة أساسية مفادها أنه يمكن توجيه نفس النقد لكل الذين ينكرون التفكير انطلاقا من خطاب مخصوص، ذلك أنه إذا كان هناك تهديد على مستوى اللغات التي تعمل على طرح تصورات ميتافيزيقية متباينة، ونطرحها بأشكال مختلفة لنفس المشكل، فذلك لا يعني أن كل هذه التصورات تتمتع بالضرورة بصلاحيّة ميتافيزيقية. إن الاعتراض المطروح يعتبر أن كل ميتافيزيقي يمكنه أن يطرح تصورا ميتافيزيقيا خاصا به، يضمّنه تصوره الخاص حول الوجود، حسب لغته التي يستعملها، وبالتالي فليس هناك ما يجعلها لغة ذات صلاحية عمومية، وإن لا شيء يمكن أن يفرض هذا التصور أو ذلك<sup>30</sup>. بينما يعتر إتيان جليسون أنه ينبغي التفكير بأن كل واحد من هؤلاء الميتافيزيقيين يشتغل في بحثه حول التعابير والالفاظ التلقائية الموجودة في الواقع Le réel ضمن عوائل لسانية مختلفة، والتي تتكامل بشكل سلس، وتسمح وحدها بالوصول إلى نتائج تنسجم حقا بالعمومية<sup>31</sup>. إذن ينبغي التوجه أولا نحو اللغة التي يعرفها الميتافيزيقي، ويستعملها، ويتعلق بتلك اللغة في تأملاته الميتافيزيقية.

لكن جليسون يعتبر أنه رغم طرح الموضوع على هذا النحو، فالمشكل ليس بسيطا أو سهلا للمعالجة، فاللغات المختلفة يمكنها أن تتضمن المادة التي يتأسس عليها تأمل الباحث الميتافيزيقي، لكن تلك اللغة ليست إبداعا للميتافيزيقيين، وإن وظيفة بالتالي ليست هي التعبير عن معارف ميتافيزيقية سابقة ومحددة بدقة. وإن كانت تلك الكلمات اللغوية تحمل قوة ومعنى فلسفيين، فإن استعمالها التقني لا يمكنها أن تمنع الاشتغال حول تلك الكلمات نفسها، بحيث قد تؤدي إلى تحوير أو تغيير للمعنى باتجاهات غير عقلانية، أو في بعض الأحيان قد تؤدي إلى مسارات غير متوقعة. وباختصار، إذا كانت التأملات الميتافيزيقية تنطلق من اللغة ضرورة، فمن الأكد بداية، بأن الخطاب اللغوي يتضمن عناصر للمعرفة الفلسفية أو انه لا يتضمنها، لكن يمكننا أن نكون متأكدين مسبقا، بأنه إذا كان في اللغة الفلسفية شيئا ما من هذا القبيل، فإن المهمة الأولى للميتافيزيقي تكمن أولا في إبرازه وإظهاره<sup>32</sup>.

#### 4- من الوجود إلى الوجود الفعلي. De l'être à l'existence

إن الارتباط بمجال ميتافيزيقا الوجود بناء على المدخل اللغوي الذي يبتغي الاتجاه نحو المضمون اللغوي أولا، يجعلنا نتوجه رأسا نحو دلالة كلمة وجود «être»، والتي يمكن أن نفهم منها سواء باعتبارها فعلا أو باعتبارها اسما. فكلمة وجود être مأخوذة باعتبارها "فعل" فهي تعني دلالة أن شيئا ما يكون qu'une chose soit، أما إذا تحدثنا عن "وجود" باعتبارها "اسم" فهي تعني "وجود" un être، يعني ذلك أننا أمام شيئا ما من الأشياء التي نقول عنها بانها موجودة<sup>33</sup>، الشيء الذي يتطلب الشرح والتوضيح.

<sup>29</sup> - ibid ; p.14

<sup>30</sup> - ibid ; p.12

<sup>31</sup> - ibid ; p. 114

<sup>32</sup>-(Gilson, l'être et l'essence ; op. cité, p. 183.)

<sup>33</sup> - ibid.p.14

يعتبر جلسون بأن هذا الازدواج اللغوي لكلمة " وجود" في اللغة الفرنسية لم يكن سائدا في كل اللغات الهندوأوروبية، ولا حتى في اللاتينية التقنية، حيث يقول بانه منذ عهد Boèce كان دائما هناك تمييز بين الفعل (esse) والاسم (ens)، وكذلك الأمر بالنسبة لليونانية حيث لا يمكن الخلط بين الوجود والوجود الفعلي، ولا حتى اليوم في اللغة الإنجليزية بشكل دقيق بين الفعل to Be وبين الاسم being<sup>34</sup>. وحتى في اللغة الفرنسية حيث ظلت اللغة الفلسفية مترددة في الحسم، فهي وارثة للسكولائية اللاتينية، يظهر أنها وجدت صعوبة في إرجاع ens ل être، ولذلك يعتبر إتيان جلسون انه في القرن 17 ميلادي نجد محاولة العديد من المؤلفين يعملون على نحت الاسم كائن étant، من بينهم نجد الدراسة التي نشرها دوبليكس Duplex سنة 1617 تحت عنوان ميتافيزيقا métaphysique حيث يطرح دوبليكس سؤالاً: ما هو الكائن؟<sup>35</sup> qu'est-ce que l'étant؟ هذه الصفة étant المشتقة من فعل être يعتبرها دوبليكس بأنها صفة للمشاركة في الفعل والاسم معا un participe وتستهتمل للتأكيد على ان شيئاً ما كيف ما كان، شريطة أن لا يكون حقيقة وواقعا Vraiment et de fait مثل: ملاك، إنسان، معدن، حجر... إلخ.

هذا الاستعمال الحديث لم يعرف سيادة كاملة في نظر إ. جلسون ضمن الخطاب الفلسفي، الشيء الذي لم يساهم في الحسم في مسألة التمييز بين الوجود بالمعنى الفعلي (كفعل) وبين الوجود بالمعنى الاسمي (اسم)، لأنه كان من شأن ذلك الاستعمال في نظر إ. جلسون ليس فقط يمكن من إعطاء دلالة مضبوطة للموجود/الكائن ens، ولكن، وهذا هو الأهم لأنه بإمكانه أن يجنبنا الازدواجية اللغوية amphibologie التي تتخبط فيها كلمة وجود être<sup>36</sup>.

ويمكن القول هنا بأنه ما دامت الصياغة الفعلية Verbale أصبحت هنا إسمية Nominale، فإن المعنى المرتبط بالفعل هو الذي سيسود في النهاية. وهذا ما دأبت عليه المعاجم اللغوية في اللغة الفرنسية، فالاسم "وجود" être يعني كل ما هو موجود tout ce qui est.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار العبارة التي استعملها دوبليكس "الذي يوجد واقعا وحقيقة باعتباره موجودا واقعا وحقيقة" فإن الكائن L'étant الذي حل محل être<sup>37</sup> للتعبير عما هو موجود، فإنه يعني ضرورة ذلك "الما هو موجود" هو حقيقة أن يكون، إذا كنا نسمي وجود être كل ما هو موجود أو كائن يعني ذلك أنه إذا لم يكن، فلن يكون موجودا مهما كان شيئاً آخر. الذي لا يكون ليس له إمكانية أن ننتعه "هذا الشيء" "Ce qui"، وبشكل أكثر دقة من تنتقي فيه هذه الصفة إنه لا شيء. Ce n'est rien.

إن متابعة خيوط التماس الموجودة في عبارة "ما هو موجود" "Ce qui est" بين الدلالة على ما هو ضمن الوجود وبين ما هو موجود واقعا<sup>38</sup>، يجعلنا نتابع ذلك التداخل الموجود على مستوى اللغة الفلسفية، لأننا عندما نتحدث عن "ما هو موجود"

<sup>34</sup> - ibid.p.15

<sup>35</sup> - ibid.p.15

<sup>36</sup>(Gilson, l'être et l'essence ; op. cité, p. 18)

<sup>37</sup> - ibid. p.24

<sup>38</sup> - ibid. p.165

فإنه أكثر سهولة لإدراكه من كونه "موجود" بشكل مجرد وخام Brut. إذا سلمنا بهذا الأمر في نظر جلسون دائما سنصل بشكل مباشر لخلط الوجود être مع الكائن L'étant. فالوجود مأخوذ باعتباره اسما يمتص بشكل كامل نفس الاسم أي الوجود être باعتباره فعل Verbe، وبأن وجود الموجود أو الكائن être un être ووجود être يظهر بأنهما متداخلان منذ هذه اللحظة.

في الحقيقة إذا كان X موجود ف X موجود ككائن un être، نقول X كائن/موجود، تبدو بالتأكيد مكافئ للقول X موجود، بينما يتطلب الأمر الكثير من أجل أن تكون العبارتان متكافئتين، وهما بالضبط يظهر أكثر الازدواجية المتعلقة بكلمة وجود être، ذلك أنه إذا كان حقيقيا بأن X موجود qu' X soit، فإنه يساوي حقيقة بأن X يكون كائن un être، لكن لا يمكننا تحويل العبارة دون إدخال تمييز مهم جدا<sup>39</sup>. وإذا كان صحيحا أن X يكون كائنا un être، فلا ينتج عنه بالضرورة بأن X موجود qu'x soit، فكونه كائن لا يعني بالضرورة أنه موجود، وإلا كان بهذا المعنى غير المحدد والمختلف جدا لذلك الأمر الذي انطلقنا منه والذي يعتبر أن X موجود ككائن واقعي أو ممكن، نتيجة هذا الالتباس يعمل الخطاب تلقائيا على مضاعفة فعل الوجود être بفعل آخر، حيث يكون دوره تحديدا هو استيعاب الوظيفة الوجودية<sup>40</sup> la fonction existentielle التي كانت في البدء كذلك، والتي تراجعت شيئا فشيئا عن الاستعمال.

يعتبر إ. جلسون بأن هذا الدور في اللغة الفرنسية يقوم به فعل "تواجد" exister<sup>41</sup> وفي لغة حيث نفس الشكل الفعلي verbale يعني "وجود" être وموجود un être، يبدو أنه من غير الممكن لصفة فعلية verbale متميزة أن تستعمل للقول عن كائن un être ليس فقط بأنه كائن، ولكن بأنه موجود، لهذا عندما نريد أن نعبر في الفرنسية دون التباس équivoque ممكن عن واقعة الوجود، فعوض القول عن كائن ما un être بأنه موجود qu'il est نقول بأنه متواجد qu'il existe. كما يؤكد إ. جلسون بأن الظاهرة نفسها نلاحظها في اللغة الإنجليزية ولو بصورة أقل وضوحا ودقة، بالتأكيد ليس هناك تناقض أو تداخل بين الفعل to be والاسم being في اللغة الإنجليزية، لكن الفعل مرتبط بشكل كبير بوظيفته كرابط copule، إنه يعلن بشكل متداول عن صفة أو نعت un attribut الذي يعمل على تعويض خيبة الأمل في الاستعمال الفعلي verbale الخالص الذي يصاحبه، إنه ليس من النادر أن تكون جملة إنجليزية تتحدث عن شيء بشكل مضاعف، وبشكل أكثر وضوحا عندما نتحدث عن المعنى الحقيقي للجملة، من هنا يظهر لنا تردد la fréquence عبارة من هذا القبيل: « God is. Or exists » "الله موجود أم متواجد"<sup>42</sup>.

يستخلص إ. جلسون أنه في اللغتين مع الفرنسية والإنجليزية كلمة وجود être بالمعنى الذي نريد أن نقول من خلاله عن شيء ما كيف ما كان إنه موجود، هناك اتجاه نحو ترجمته بواسطة فعل آخر، الذي هو فعل "تواجد". وأن هذا التواجد أصبح في نظر إ. جلسون من الأشياء التي ترسخت، بحيث من العبث العمل على مواجهة أو معاكسة هذا الأمر<sup>43</sup>. ولتوضيح الأمر بشكل أفضل،

<sup>39</sup>- ibid. p.167

<sup>40</sup>- l'être et l'essence ; op. cité, p. 20

<sup>41</sup>- ibid ; p.21

<sup>42</sup>- (Gilson: le thomisme p.165)

<sup>43</sup>- (Gilson, L'être et l'essence, op. Cite, p.23)

تواجد *exister* لم يكن ابدا مجرد طريقة للوجود *manière d'être* مرتبنا بالزمن أو في علاقة أساسية بأصله الخاص. من هنا يبنثق التباس *équivoque* جديد حيث تجد اللغة الميتافيزيقية الحديثة نفسها مثقلة بإمكانية التحديد الاتي من المعنى الأول لتواجد *exister* والتواجد *existence* وتنحو نحو المعنى الثاني، الشيء الذي لن يمر دون ان يخلق ما لا يعد ولا يحصى من الارتباك *confusion* والالتباس<sup>44</sup>، الأكثر سوءا هو أننا نادرا ما نعرف بالضبط أي من هذه الالتباسات المطروحة التي يمكن أن تكون في المتناول. القول بأن كائن *être* كيف ما كان يتواجد *exister* يمكن أن يعني بكل بساطة بأنه موجود *qu'il est* أو بالتناوب *alternativement*، بأنه يلج للوجود انطلاقا من أصله والقول بأن كائن ما موجود *est* يمكن ان يعني ببساطة بانه يتواجد *qu'il existe*، أو إذا لم يكن له أي أصل بأنه لا يتواجد. *qu'il n'existe pas* إذا قلنا على سبيل المثال بأن الله موجود *Dieu est* فأغلبية الناس سيفهمون فوراً من ذلك أنه متواجد. *qu'il existe* وإذا قلنا بأن الله لا يتواجد *Dieu n'existe pas*، فنفس الناس سيفهمون فوراً بأن الله غير موجود *n'est pas*، بينما هذه النتيجة ليست ذات صلاحية في أعين الوجودية المعاصرة *Existentialisme contemporain* لأن إذا كان الله موجودا *si Dieu est*، فانطلاقا من ماذا سيكون كتواجد؟ وسيكون ضروريا القول بأن إذا كان الله موجود، فإن الله غير متواجد. *Dieu n'existe pas* نكون إذن شهود إثبات لإقصاءين (مباشريين) للمعنى الفعلي *verbal* «الوجود» *d'être* وللمفهوم *la notion* الذي يرتبط به. بداية هذا المعنى الفعلي يتم النظر لإقصائه من طرف الاسم. «الوجود» يختلط مع وجود الموجود *être un être*، أو بصيغة أخرى، ففعل الموجود يختلط مع ما هو موجود *ce qui est*؛ ثم أن المعنى الفعلي<sup>45</sup> *verbal* نفسه يتم النظر إليه بأنه مصادر *confisqué* لصالح التواجد *l'existence*، وكأن فعل الوجود نفسه اختلط ضرورة مع كيفية الوجود المتميز الذي يحدده فعل التواجد *exister*. في الحالتين معا فعل الوجود *acte d'être* يوجد مبعدا بشكل جذري من الميتافيزيقا وإبعاده من طرف التواجد *l'existence* يقود إلى نفس النتائج لإبعاده من طرف الماهية لما هو موجود. *l'essence de ce qui est* لهذا نفهم لماذا إذا حافظنا على معنى الفرنسية الكلاسيكية لكلمة "تواجد *exister*" والتواجد *existence* لا يعني إلا "الوجود العاري والبسيط للأشياء" *le simple et nu être des choses* أو بصيغة أخرى، لهذا الامر كل واقعي *réel* يتميز عن العدم *se distingue du néant*، ويمكننا القول دون تناقض بأن الوجودية المعاصرة لا تطرح في أي لحظة مشكلة التواجد، فموضوعها الخاص هو كائن بماهية جديدة *étant d'une nouvelle essence* والمتعلقة بالوجود ضمن الصيرورة *le devenir* في الزمن<sup>46</sup>. كيف للكائن أن يكون ويستمر *comment l'étant est et dure*، كيفما كانت انشغالاته الأساسية. لكن أن يكون *qu'il soit* لا يطرح لديهم أي مشكل، فالعدم كما الوجود عند الوجودية لا يتوقف عن التغلب عليها، الى أن يخضع ويستسلم في نهاية المطاف، ليس هناك أبدا عدم داخل وجوه الخاص ليس موضوعا لأي تساؤل. بينما هنا يكمن التساؤل الأساسي بالنسبة إلينا. ليس مهما ان نسمي وجودا *être* أو تواجدا *exister* الفعل الذي يفضل الكائن *l'étant* هو نفسه "موجود" *un être* ولا نحتج على ذلك ولو للحظة، بل بالعكس، بأن الوجودية *l'existentialisme* لا تجد داخل التواجد *l'existence* كما نفهم ذلك موضوعا لفينومينولوجيا أساسية وذات فائدة،

<sup>44</sup>- (l'être et l'essence, op , cité p21)

<sup>45</sup>- Ibid., p.19

<sup>46</sup>- Ibid., p.20

فالخطأ الوحيد للوجودية هو أن تعتبر نفسها كميثافيزيقا وتنسى حضور الفعل الذي بفضلها يكون الكائن متواجدا وفي مجهودها المشروع *légitime* من أجل إعادة وضع التواجد داخل الوجود *l'être*، وأن تنتظر *de l'avoir*<sup>47</sup> إليه مرة أخرى ماهويا *essentialisé*

## 5- ميتافيزيقا الوجود والماهية.

يعمل المعلم جلسون M.Gilson من خلال كتابه « *l'Être et l'Essence* » « الوجود والماهية » على فحص سؤال يتمتع براهنتيه والمتمثل في طرح السؤال الإبستمولوجي : هل من الممكن قيام فلسفة للوجود الفعلي ؟ *Philosophie d'existence*. لقد عمل إ. جلسون على إضاءة هذا السؤال مستعينا بالتأمل الفلسفي حول المعطيات التاريخية للفلسفة منذ بارمنيد إلى حدود الفلسفة الوجودية مع كير كيجارد، متبعا طريق الفحص التاريخي ورد التحولات والانتقالات المرتبطة بمجال الميتافيزيقا من أجل توسيع الفهم والبحث عن حقيقة موضع الميتافيزيقا (ق20م). إن العمل الضخم الذي يقدمه لنا المعلم جلسون بحدسه التاريخي، يظهر لنا كتطور للفهم لحالات الفكر التي تكشف عن تموقعاتها بين المثالية والواقعية، حيث يعتبر أن المدخل للفهم والحسم، في مختلف تلك التوقعات هو أن الازدواجية *l'ambiguïté* المتعلقة بكلمة "وجود" « *être* » الماهية *l'essence* وأحيانا أخرى فعل الوجود الفعلي *l'acte d'exister*. تلك الازدواجية التي يعتبرها التعبير النهائي والبعيد الذي يتضمن ويحوي تنوع الآراء والمواقف الفلسفية. إن الصرامة النسقية للفلسفة إضافة إلى التوجه الطبيعي لفكرنا التجريدي كما يشرح إ. جلسون، هو ما يدعونا إلى تصور الواقع *le réel* باعتباره ماهية، بمعنى أنه شيء ما ثابت في مفهوم الماهية *l'essence* سنصل إلى "أنطولوجيا" واقعية أو مثالية، حيث الوجود الفعلي *l'existence* لا يتدخل إلا باعتباره حادثا *un accident* والتي تعلن عن عدم إمكانية حل مشكل الصيرورة *le devenir* والعلية *la causalité* في مقابل المذاهب ذات الأصول الدينية، حيث تتم البرهنة على ضرورة بعض المشكلات، حيث نصل بشكل قدري إلى رفض المثالية العقلية التي تقترحها كل فلسفة.

يعتبر إ. جلسون أنه بين هذين التوجهين المتطرفين المثالي والواقعي، يتموقع اتجاه وسطي وممكن، تمكن من الحصول في التاريخ من خلال "الميتافيزيقا الوجودية" للقديس طوما الأكويني<sup>48</sup>، بحيث يؤكد بأن ما يحدد الخصائص الطوماوية في الحقيقة، هو تموقع الوجود الفعلي *l'existence* في قلب الواقع، باعتباره فعل متعال عن كل مفهوم، متجنباً بذلك الخطأ المزدوج المتعلق بالبقاء اما في مواجهة التعالي، أو الانزلاق نحو التجسيد *l'objectivant* والموضعة، وبذلك يكون إ. جلسون قد عمل على إعادة صياغة المواقف المبدئية الفلسفية المتنبئة منذ بارمنيد *Parménide* وحتى كير كيجارد، ويعمل على مواجهة تلك المبادئ الموجهة لأعمال هؤلاء. فمن خلال الدمج الذي تبناه جلسون بين التحليل التاريخي والإبداع الفلسفي الذي سلكه في الفصول الثمانية الأولى من كتابه "الوجود والماهية" يظهر بشكل جلي مسألتها للمفاهيم المتعلقة بميتافيزيقا الوجود، بناء على حوار فلسفي رصين مع الإنتاج الفلسفي الميتافيزيقي.

<sup>47</sup>-Ibid. p20

<sup>48</sup> (Gilson, *l'être et l'essence* op, cité chapitre 3 p.81-123.)

يظهر لنا أن الحجة الفلسفية الأساسية لمؤلف المعلم جيلسون M. Gilson تتلخص لنا بالطريقة التالية : كل فيلسوف يقدم نفسه على أنه يعرف ويفهم الواقع *le réel*، بينما في الحقيقة يمكن أن نميز بين سمتين اثنتين، ليس من السهل مقارنتهما من الزاوية المعرفية التي نعالج من خلالها هذا الأمر، فالماهية *l'essence* التي يتم تصويرها وتعريفها في الفكر الفلسفي، مشروطة باستعمال المفهوم وموجهة نحو الفهم *la compréhension*. في حين أن الوجود الفعلي يتم ملاحظته، يتم اختياره، يتم تأكيده وتحديدته باعتباره واقعة *un fait*، إنه ليس قابلاً للتصور المفهومي ولا له مضمون ضمن تعريف ما. من هنا، فكل فيلسوف يجد نفسه أمام اختيار أساسي، وهو الكشف عن ازدواجية كلمة "وجود" « être » وجعل هذه "الماهية" مكملة لذلك الوجود الفعلي، إنه اختيار للفلسفة باعتبارها تصوراً، كعلم، كنظام عقلي مدمج، الشيء الذي يؤدي إلى اعتبار "المعرفة" و"التصور" بأنهما مرادفان لبعضهما البعض، مما يؤدي ذلك طال الزمن أم قصر إلى اللغز *Mystère* المتمثل في الاصطدام باللاعقلي وباللامعرفي. وباختصار، سيؤدي ذلك الاصطدام بالسقوط في التناقض. في المقابل، يجد الفيلسوف نفسه أمام أسبقية الوجود الفعلي على الماهية، كما يؤكد على ذلك القديس طوما الأكويني، يعني اعتبار الماهية كمكمل للوجود الفعلي وكونها التحديد العقلي له. إنها عملية حد وتوقيف للتصور عما لا يمكن تصوره، والاعتراف إذن بأن هناك شيء ما فوق المفهوم *au-delà du concept*، والذهاب بعيداً من الحدود الوجودية نحو التنظيم الفلسفي. هذا الاختيار ليس عبثياً، فإذا كان المفهوم ليس هو الطريق الوحيد للمعرفة، فإن ذلك يتطلب في الحقيقة، البحث عما يسمح في الوقت نفسه بتفسير الواقعي *le réel*، والمعرفة التي نمتلكها عن ذلك الواقع. إن الأمل الذي يحدونا هنا هو العمل عن قرب من أجل فحص التأكيدات الثلاث التي تحدث عنها جيلسون باعتبارها التأكيدات الرئيسية لهذه الحجة الفلسفية وذلك بالاطلاع على:

- أ- اعتبار أن "الماهية" و "الوجود الفعلي" يتمايزان تمايزاً جذرياً، فالماهية هي موضوع المفهوم، بينما الوجود الفعلي فهو لا مفهومي *inconceptualisable*.
- ب- إن بلوغ الوجود الفعلي *l'existence* يتم عبر الإدراك وعبر حكم الوجود الفعلي *jugement d'existence*، وليس عبر المفهوم ولا عبر الحكم الحملي<sup>49</sup> *jugement d'attribution*.
- ت- إن طريقتنا لمعرفة الوجود الفعلي تتم عبر ميثاقين يقا الوجود الفعلي كذلك.

### 1-5 الماهية والوجود الفعلي.

إن التمييز الجذري للماهية كموضوع للمفهوم عن الوجود الفعلي اللامفهومي، هي بدون شك الفكرة المفتاح التي يسعى إلى ترسيخها مؤلف "الوجود والماهية" لإتيان جيلسون، هذه الفكرة يتم تقديمها في بداية المؤلف باعتبارها فرضية أو منطلق غير حاسم لكنها تتأكد بشكل واضح من خلال التحليل التاريخي الذي يتبعه إ. جيلسون.

<sup>49</sup> إن التعريف الكلاسيكي للحكم الحملي ضمن المنطق يعتبره فعلاً للتعليق بشيء ما: وبالتالي، فإن القول "الكلب جميل"، يعني إسناد المحمول، "الجمال"، إلى الموضوع، "الكلب". يعود هذا التعريف الكلاسيكي لأرسطو، وتم تناوله بشكل خاص من قبل كانط، الذي يعتبر الحكم بالنسبة له فعلاً لمقولة الفهم، حيث يضيف مفهوماً إلى حدس تجريبي (أقوم بإضافة مفهوم الجمال إلى الحدس التجريبي، أي هنا لإحساس أو إدراك الكلب) إلى هذا الحد، يُقال إن الحكم صحيح عندما يتوافق مع الواقع: إذا قلت "هذا المبنى يتكون من ثلاثة طوابق"، فإن هذا الحكم يكون صحيحاً إذا كان المبنى يتكون من ثلاثة طوابق بالفعل، وليس خمسة. يسعى هنا جيلسون لإبعاد حكم الوجود الفعلي عن كل التباس بالحكم الحملي المنطقي.

منذ بداية المؤلف " الوجود والماهية"، في المقدمة، يوضح إجلسون أنه ما دام مفهوم الشيء الواقعي *une chose réelle* لا يختلف في أي شيء عن الشيء نفسه باعتباره شيئاً محض ممكن، فتمثلنا المفهومي للواقع يكون منذ بدايته الأولى معزولا عن الوجود الفعلي « *l'existence* » فكل المفاهيم تتمتع بنفس الخصائص المتمثلة في نوع من الحياد الوجودي *neutralité existentielle* ومن هنا تولد الصعوبات التي تشكل الاستعمال الفلسفي لمفهوم الوجود، بحيث إذا كان هناك من مفهوم يكون متضمنا للوجود الفعلي *l'existence* إنه هو نفسه، ومع ذلك وباعتباره تحديدا مفهوميا، فإن تضمنه لا يشبه باقي التضمينات الأخرى. فتصور *x* ككائن لا يعني التفكير بأنه موجود واقعي أو إذا فضلنا ذلك، إنه بكل تأكيد لا يختلف تماما عن مفهوم الوجود *d'être* سواء كان ذلك الشيء متواجدا أم غير متواجد.<sup>50</sup>

إن التمييز بين الماهية والوجود الفعلي اللذان يمكن التعبير عنهما بشكل متداخل ومزدوج عن طريق كلمة "وجود" « *être* » المزدوجة المعنى، هي أكثر جذرية عندما نواجه مذاهب فلسفية حيث الوجود *l'être* ليس إلا معنى واحد كما هو الشأن بالنسبة لأفلاطون بحيث أن الوجود ليس هو الوجود الفعلي<sup>51</sup> وبذلك لا ينبغي لنا أن نتساءل ضمن التصور الأفلاطوني عما إذا ما كانت المثل *les idées* الأفلاطونية متواجدة فعلا أم غير متواجدة. أما بالنسبة لكيرك جارد على العكس من ذلك فالوجود *être* يعني تحديدا وبشكل أحادي الوجود الفعلي *exister* بحيث يعتبر إجلسون أنه من كثرة تدريس كير كيجارد للوجود باعتباره وجودا فعليا وتكرار الحديث عنه *l'existence* إلى درجة تدمير معنى الوجود *l'être* وعدم التفكير فيه بالمرة.<sup>52</sup>

يؤكد إجلسون على أن بين هذين التوجهين المتطرفين في اتجاه الاحتفاظ بمفهوم الوجود أو الذهاب رأسا نحو الوجود الفعلي، هناك بدون شك مذاهب تضع موقعا لكل من الماهية والوجود الفعلي، لكن المحافظة دائما بشكل سلس على عدم اختزال أحدهما للآخر. فالقديس طوما الأكويني في نظر إجلسون حافظ على منطلقات ابن سينا والمتعلقة بالتعريف المتعلق بالماهية لا تضمن وجود الفعلي<sup>53</sup> وكما يقول ابن سينا الفرسية ليست إلا فرسية<sup>54</sup> الفرسية ليست لا مفهوم الفرس ولا الفرس إنها ليست إلا الماهية المشتركة التي يمكنها دون تمييز أن تصبح هاته أو تلك، أي أن تصبح مفهوما كونيا للفرس أو أن تكون فرسا مخصوصا، وبخصوص هذه النقطة فالقديس طوما الأكويني يتفق مع آخرين مثل Bossuet كما يذكرنا بذلك إجلسون بحيث يعتبر أن موضوع المفهوم ليس هو أبدا الوجود الفعلي<sup>55</sup> وبنفس المعنى الذي يتحدث عنه إجلسون وما يوافق كلامه وطريقته في النظر يقدم التصور الديكارتي، حيث أن ديكارت يعرف جيدا بأنه باستثناء الحالة الوحيدة المتعلقة بالله *Dieu*، فإن مفهومنا للماهية كيفما كانت لا يتدخل أبدا في وجودها الفعلي<sup>56</sup> كما أن كائط بدوره يعيد اكتشاف المبدأ الأساس لابن سينا بأن تحليل أية ماهية

<sup>50</sup> (Gilson, *L'être et L'essence*, op.cit. p.9).

<sup>51</sup> Ibid. p.29.

<sup>52</sup> Ibid. p.239.

<sup>53</sup> Ibid. p.127.

<sup>54</sup> Ibid. p.132.

<sup>55</sup> (Gilson, *L'être et L'essence*, op.cit. p.227.)

<sup>56</sup> Ibid. p.157.

منتبهة لا يسمح أبدا باكتشاف الوجود الفعلي،<sup>57</sup> I'existence وبذلك يعتبر إ. جلسون بأن كانط يجد نفسه قريبا من الواقع الوجودي الخالص. بهذا المعنى الذي أطلقه الذي جعل منه يتموقع أكثر من كونه مجرد ممكن وخارج نظام المحمولات بشكل كامل.<sup>58</sup>

بعد تحليل مستفيض لتمييز الماهية عن الوجود الفعلي، يعمل إ. جلسون في خاتمة كتابه الوجود والماهية على التأكيد بشكل واضح وصارم على تمييز الماهية عن الوجود الفعلي بحيث يقول بأنهما ليس فقط متميزان، لكن يمكننا القول بأنهما غير متقابلين<sup>59</sup> إنهما غير متميزان وأنه من العبث العمل على توافقهما بشكل متعسف.<sup>60</sup>

إن التمييز الحاسم بين مفهوم قابل للمفهومية conceptualisable (الماهية) وآخر غير قابل للتصور inconceptualisable يطرح بالتالي سؤال العلاقة بينهما، بحيث يعمل إ. جلسون على معالجة هذا السؤال بتحيز واضح وبفعل اقتناعه الأولي قبل أن يخوض في تلك المعالجة، فمن الضروري أن نتساءل هل لذلك من معنى، أم أن المسألة ليس لها معنى إلا بشرط أن نكون قادرين على معرفة ما ليس موضوعا للمفهومية أو التعريف، يتعلق الأمر إذن بالبرهنة على أن نظام المعرفة هو أكثر اتساعا وشمولا من مجرد مفهوم أو بصيغة أخرى، بأنه من الممكن أن تعرف ما لا يمكن أحيانا أن يكون ممكنا تصوره.<sup>61</sup>

## 2-5 ميتافيزيقا الواقع بين الحكم الحملي وحكم الوجود الفعلي

إن العمق الفلسفي الذي يعمل على تحليله اتينان جلسون يرتبط بميتافيزيقا الواقع من خلال سبر أغوار دلالة مفهوم الواقع réel في التصور الفلسفي. هذا الأخير الذي عرف تطورا في أبحاث إ. جلسون منذ 1939 حيث يؤكد الباحث فان رايت Georges Van Riet بأن هذا التطور أو التحول تمثل في انتقال جلسون من الحديث عن الواقع الميتافيزيقي من دلالاته الحسية إلى كفياته العقلية. فالعمق الميتافيزيقي للواقع ليس له كيفية حسية، وإن كنا نتعرف عليه بواسطة الحواس فإنه ليس هو الحواس، بل بواسطة العقل يتم تعقل الواقع "إنما يتلقاه الحس يكون موجودا، وأن الوجود الفعلي متضمن فيما يدركه الحس، لكن الحس نفسه غير قادر على إدراكه وقراءته، وبأن العقل وحده القادر على فهمه وإدراكه".<sup>62</sup>

لكن هذا الأمر طرح صعوبة حقيقية من نوع آخر، فما يدركه العقل ويعبر عنه ضمن المفهوم. فهو ينتمي لنظام الماهيات، إنها ماهية الوجود الفعلي وليس الفعل نفسه للوجود هو الذي يدركه، فالعقل باعتباره ملكة لما هو كوني، لا يدرك أبدا الوجود الفعلي الملموس في شكله المتفرد<sup>63</sup>.

<sup>57</sup> Ibid. p.194.

<sup>58</sup> Ibid. p.191.

<sup>59</sup> Ibid. p.314.

<sup>60</sup> Ibid. p.318.

<sup>61</sup> Ibid. p.248.

<sup>62</sup> ( Gilson, Réalisme thomiste et critique de la connaissance p.218.)

<sup>63</sup> Ibid. p.217.

في مواجهة هذه الصعوبة يجيب المعلم جلسون: قبل أن نكون معزولين ضمن المفهوم حيث تكون ماهية الماهية une quiddité فالماهية منظورة في الحواس وهي كذلك، مدركة، فهي تكشف حقيقة الفعل الوجودي l'acte essentiel للشئ، ذلك أن الماهية انسجام وتوازن العمليات المعرفية، تفسر إذن كيف أن العقل يمكنه إدراك الوجود الملموس، كما أنها تفسر كذلك أن مفهوم الوجود يمكنه أن يخدم المحمول le prédicat في إصدار حكم الوجود الفعلي jugement d'existence.

هذا الأمر يؤكد إ. جلسون من خلال الحديث عن الإدراك العقلي لما هو موجود في الحواس "عندما يكون مفهوم الوجود موجودا ... مجردا في كل موجود ملموس بواسطة الحواس فإن الحكم الذي يحمل على الموجود الفعلي، فهو محمول كما يدركه العقل، بمعنى وكأنه منظور" في الحواس كما يكون معطى في المجرّد<sup>64</sup>، بهذا المعنى فإننا لا نجد انطلاقا من 1939 عند إ. جلسون تمييزا بين الماهية الواقعية ضمن الحواس، والماهية المجردة المعبر عنها ضمن المفهوم فتقابل الماهية والوجود الفعلي يتم ترجمته حاليا عن طريق التعارض أو التقابل بين الماهية "كموضوع للفهم" والوجود الفعلي باعتباره "غير قابل للمفهمة". يستفاد من هذا التصور أن مشكل الإدراك العقلي للوجود الفعلي l'existence أصبح يطرح حصرا ضمن حكم الوجود الفعلي jugement d'existence، فهذا الأخير أصبح حكما دون محمول sans prédicat، حيث الموضوع هو "المفهوم" وحيث الفعل هو وحده الذي يؤكد الوجود الفعلي. فحسب إ. جلسون ففعل الوجود الفعلي رغم كونه خارج الفكر التصوري فهو يستمر مع ذلك كقابل للفهم من طرف العقل l'intelligence فإذا لم نصل إليه عن طريق التصور أو المفهوم le concept فيبقى أن نصل إليه عبر الحكم le jugement<sup>65</sup>.

لهذا فمضمون هذا الحكم الذي يصل إلى إثبات الوجود الفعلي فهو من نوع خاص، أي أنه غير قابل للاستيعاب ضمن المنطق la logique "إنه يختلف تحديدا عن الحكم الحملي jugement d'attribution الوحيد الذي يعرفه المنطق. فعلى خلاف الحكم المنطقي الذي يتضمن موضوع و رابط ومحمول، نجد الحكم المرتبط بالوجود الفعلي يشمل فقط موضوع (sujet) وفعل un verbe.

إن حكم الوجود الفعلي يؤكد واقعة الوجود الفعلي "دون استعماله لهذه الغاية المعمولة تحديدا، لأن الموجود ليس ماهية، إنه ليس موضوعا للتصور<sup>66</sup> تلك هي الخاصية الأولى لحكم الوجود الفعلي، وخاصيته الثانية المميزة، تأتيه من كون الفعل ليس مجرد رابط copule، ومن أجل إظهار هذه الخاصية المميزة لحكم الوجود الفعلي يتساءل إ. جلسون هل من الممكن اعتبار الفعل est هو مجرد رابط بعيد عن كل دلالاته التواجدية existentielle ففي القضية "الله هو موجود" Dieu est existant، فإن الحكم "الله هو" Dieu est يؤدي في نهاية المطاف إلى حكم حملي un jugement d'attribution "إنه بكل تأكيد كذلك على الورق فقط، يجيب جلسون شريطة القيام بتجريد للمعنى الواقعي الممنوح للكلمات من طرف الفكر، عندما نؤكد بأن الله هو موجود Dieu est existant لكن إذا كان ما نقوله بأن الله هو Dieu est يعني موجود c'est l'existant، يصبح آنذاك مستحيلا أن نتصور est باعتباره مجرد رابط، لنذكر في الحقيقة بأنه في المنطق الكلاسيكي،

<sup>64</sup>(Gilson, L'être et L'essence, op.cit. p.225.)

<sup>65</sup> (Gilson, L'être et L'essence, op.cit. p.248.)

<sup>66</sup> Ibid. p.285.

الرابط يحمل دائما على المحمول: "الله هو موجود" Dieu est existant تعني أن الله موجود Dieu est existant. أو بصيغة أخرى الفعل est وموجود existant هما الشيء نفسه، est لا يربط أبدا محمول بموضوع وإنما الفعل est يولد ويخلق معه،/ وذلك أنه لا يخلق معه إلا لأن المحمول هو إذن الفعل نفسه يتم تكراره بشكل آخر "67 فلهذا الاعتبار فمن الأولى القول بأن حكم الوجود الفعلي لا يجد له مكانا في المنطق، أو أن الحكم الحملي le jugement d'attribution الذي يعالجه المنطق لا يمكنه أبدا بلوغ الوجود الفعلي l'existence.

يعتبر إ. جلسون أن هذا الأمر طبيعي لأن المنطق يعمل على تجريد الوجود الفعلي ويهتم تحديدا بمعاني الأحكام التي تعني أن المنطق يحدد القواعد التي ينبغي ملاحظتها عندما نعمل على توحيد أو تقسيم تصورين اثنين. لكنه في المقابل لا يهتم أبدا بالحقيقة أو بالدلالة الواقعية للقضايا العملية التي يستهدفها المنطق. على خلاف ذلك، يكون هذا بالضبط هو الشرط الأول لكل حقيقة يعبر عنها حكم الوجود الفعلي، وذلك عن طريق تأكيد التواجد الواقعي للتصور - الموضوع.

### 3-5 ميتافيزيقا الوجود الواقعي Métaphysique de l'existence

إن الهاجس الأساس الذي يتحكم في البحث الفلسفي عند جلسون كما تم الحديث عنه سابقا يتمثل في بلوغ دلالة واضحة لمفهوم الواقع le réel، عبر الحسم بشكل واضح في المعنى المزدوج لكلمة Etre التي تأتي بمعنى الموجود l'être وتارة أخرى بمعنى ماهية Essence، وفي ظل ذلك التراجع بين التجريد الماهوي وبين تجسيد الواقعي تتداخل وتتشابك خيوط الحسم بين الانتصار للمفهوم أو الدلالة الواقعية للوجود الفعلي l'existence. ولذلك نجد إ. جلسون يدافع عن كون المقارنة المنطقية ضمن علم المنطق لن تحل إشكال العلاقة بين الماهية والوجود على اعتبار أن ميتافيزيقا الواقع تتجاوز مجرد الفصل أو الوصل كروابط منطقية يمكنها أن تقدم أجوبة حول القضايا من حيث الصحة لكنها لن تقدم جوابا يلامس حقيقتها الواقعية. لذلك يربط تلك الحقيقة والحديث عن فعل ثان يتمثل في الحكم le jugement الذي يسميه حكم الوجود الفعلي jugement d'existence بناء على وجود فعل الموجود الفعلي l'acte d'existence الذي يكون بمثابة موضوع لمعرفةنا الأولية عن الواقع في اتجاه تحديده كماهية عقلية.

هكذا تتشكل حياتنا المعرفية في نظر إ. جلسون ضمن ثلاث لحظات أساسية يمكن أن نميز بينها على الأقل من الناحية المنطقية، فبفضل الحساسية ندرك الكائن الموجود، وبفعل التجريد نعمل على تشكيل المفهوم لماهية محددة أو بصيغة أخرى نحدد الموجود بصفة عامة. وأخيرا نعمل على إرجاع هذه الماهية المحددة للوجود الفعلي أو الواقعي بواسطة حكم مكون من كلمتين، حيث الماهية تلعب دور الموضوع le sujet وحيث الفعل le verbe وحده يؤكد تواجد ذلك الموضوع، مع التنبيه إلى أن هذا الحكم لا يؤكد محمول لموضوع ما، فحكم الوجود الفعلي le jugement existentielle يبقى مع ذلك هو فعل لتكوين المفهوم مع شيء آخر، إنه يؤكد تركيب الموضوع مع فعل الوجود l'acte d'exister، ويعمل على توحيد الفكر كما هو الحال سلفا في الواقع<sup>68</sup>.

<sup>67</sup> Ibid. p.261.

<sup>68</sup> (Gilson, L'être et L'essence, op.cit. p.285.)

يستخلص إ. جلسون بأن تجريد الماهية ما هي إلا لحظة وسيطة بين الإدراك وإصدار الحكم، حيث يكون الموضوع هو فعل الوجود *l'acte d'exister*، ولذلك فالماهية بعيدة عن أن تكون سابقة على الوجود الفعلي *l'existence*، بل على العكس من ذلك فهي مرتبطة به، فهي ليست إلا الجزء المعزول من الحقيقة الواقعية التي نعمل على تجريدها<sup>69</sup> هكذا نجد أنفسنا حسب جلسون إذن بطريقة ما أمام إمكانية، لحل سؤال العلاقة بين المفاهيم *les notions* التي نعرف أنها مميزة لكل من الماهية والوجود الفعلي *l'essence et l'existence*.

### خاتمة:

يضع جلسون الميتافيزيقيا التوماوية على مفترق طرق بين مفهومين للوجود، الماهوي والوجودي. من خلال الاستناد إلى مفهوم الوجود الذي يشتمل في حد ذاته على كل من الماهية والوجود، فإن الأخير يتجاوز، في توليفة فائقة، فلسفات الماهية (الماهوية) وفلسفات الوجود (الوجودية).

الفلسفة التي تنطلق من مفاهيم مثل الماهية أو الوجود، فهي منطلقات تجريدية: أولها ينشأ من حاجة الإنسان لتحويل الفوضى إلى كون، لتنظيم الواقع وفقاً لمفاهيم عقلانية تماماً؛ يولد الثاني لادعاء الوجود فيما يتعلق بالماهية؛ ولكن، من خلال الارتكاز على تجربة الوجود، فإنه لا يتمكن من الحصول على معرفة موضوعية عن الوجود. يوضح جلسون: "كما أن الماهوية هي فلسفة للوجود ناقص الوجود الواقعي، كذلك فإن الوجودية هي فلسفة الوجود ناقص الماهية"<sup>70</sup>.

إن فكرة الوجود كفعل موجود، وبالتالي ليس وفقاً لطريقة خاصة به، ولكن وفقاً لما يشكله بشكل أكثر كمالاً على هذا النحو، هو بالنسبة لجيلسون الاكتشاف الأصلي لفلسفة القديس توماس الأكويني، والذي بموجبه تفرض الأنطولوجيا التوماوية نفسها فيما يتعلق بجميع الأنطولوجيات الأخرى.

### نتائج البحث:

يمكننا القول بأن كل دراسة تسعى نحو نتائج معينة، منها ما هو قريب المدى ومنها ما هو مأمول على المدى البعيد. في هذا الإطار يمكننا أن نجزم بأن من النتائج المتوقعة لهذا البحث بلوغ ما يلي:

- التأكيد من خلال الأطروحة المركزية على أن الوجود سابق على الماهية في نظر اتيان جلسون بناء على قراءته لفكر القديس توماس الأكويني.
- تقديم قراءة جديدة للميتافيزيقا، منفتحة على التاريخ وخاصة تاريخ العصر الوسيط في الفلسفة المسيحية.
- ربط علاقة واضحة بين الفلسفة في العصر الوسيط وبين نتائج الفكر الحديث وامتداداته المعاصرة.
- ترسيخ توجه فلسفي منفتح على ميتافيزيقا الواقع وجعل الوجود الانساني مجالاً للتفكير في الواقع.

<sup>69</sup> (Gilson, L'être et L'essence, op.cit. p.287).

<sup>70</sup>(GILSON, L'être et l'essence,p.301)

- التأكيد على كونية الفكر الفلسفي، باعتبار أن الاصلاح الذي قاده القديس توماس الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي هو نتيجة سلسلة من التحولات انطلقت من اليونان وترسخت في البيئة الاسلاميه مع كل من ابن سينا وابن رشد وانبتقت من جديد مع ديكرات في القرن السابع عشر بفعل الاصلاح الذي عرفته الفلسفة في القرن 13 م.

### توصيات ومقترحات:

في نهاية هذا المجهود الفكري المتواضع نتطلع كباحثين في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية إلى:

- 1- تشجيع الباحثين الشباب على البحث في مجال الميتافيزيقا لأنه في نظرنا ليس مجرد مجال بعيد عن حياة الناس ولكن تأمل موضوعه يجعلنا نتعرف انعكاساته الكبيرة في الحقلين السياسي والاجتماعي.
- 2- فتح المجال لتبادل الخبرات والمعارف بين الباحثين العرب في مجال البحث الفلسفي.
- 3- انشاء مراكز للبحث والتفكير في القضايا الفلسفية على مستوى الدول التي تعتمد دراستها باللغة العربية.
- 4- تشجيع الباحثين على ترجمة الانتاج الفلسفي المعاصر قصد المساهمة في الثقافة وتقليص الفجوة القائمة بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات الحديثة.

### لائحة المراجع المعتمدة:

#### 1- مراجع باللغة العربية:

- حنفي، حسن (1956). نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتقديم وتعليق، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية.
- برييه، إميل (1981). تاريخ الفلسفة، العصر الوسيط والنهضة، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى .
- جلسون، اتيان (1994)، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح امام، الناشر مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة.

#### 2- مراجع باللغة الأجنبية:

- Gilson, E. (1972). L'êtré et L'essence, vrin ; 3eme Edition ; paris
- Gilson, E. (1937). The unity of philosophical experience. Scribner's sons ; New york.
- Gilson, E. (1956). le thomisme ; vrin
- Gilson, E. (1972) Réalisme thomiste et critique de la connaissance

- 
- Aubenque, P. (1979). Etienne Gilson et nous.
  - GILSON, E. (1964). *Héloïse et Abélard*, Vrin, Paris
  - GILSON, E. (1960) Le philosophe et la théologie, Fayard, Paris

**Doi:** [doi.org/10.52133/ijrsp.v3.32.4](https://doi.org/10.52133/ijrsp.v3.32.4)